

الباب الثالث

ولا تجسسوا

« كل من ستر معصية في داره وأغلق
بابه لا يجوز أن يتجسس عليه وقد نُهي
عن ذلك » إحياء علوم الدين
الإمام الغزالي

obeikandi.com

التجسس

هو أول ثمرات شجرة الظن السيئ المشئومة ووسيلة الظان للتحقق من ظنه عادة .

والتجسس كما عرّفه العلامة الألوسى : « هو البحث عما هو مخبأ من أحوال الناس ، وهو من الجس أى اللبس لمعرفة حقيقة الملمس » أه بتصرف .

وقد أفاضت أدبيات فقهاء الإسلام وعلمائه فى التحذير منه لخطورته الشديدة على بناء المجتمع والثقة بين أفرادها فضلاً عما فى صاحبه من دناءة لا تناسب المؤمن . فالنهي القرآنى صريح فى قوله تعالى : ﴿ .. وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ [الحجرات : ١٢] ، وكذا النهى النبوى مثله فى الصراحة : « .. ولا تجسسوا ولا تجسسوا .. » ^(١) وكل من التجسس والتجسس بمعنى تتبع ما خفى من أخبار الناس . وما أشد الزجر والكلمات الحادة فى النهى عن هذه الخصلة

(١) جزء من حديث رواه البخارى [٤٨٤٩] ومسلم [٢٨/٢٥٦٣]

عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .

الذميمة فى حديث ابن عمر رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى
الله عليه وسلم قال : « يا معشر من قد أسلم بلسانه ، ولم
يفض الإيمان إلى قلبه . لا تؤذوا المسلمين ، ولا تعيروهم ، ولا
تتبعوا عوراتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ،
ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله » (١) .

انظر إلى هذا التغليظ ينفى الإيمان عن صاحب هذه الصفة
البذيئة والتأكيد على أنه لم يدخل قلبه .. ثم انظر إلى هذا الوعيد
الشديد بالفضيحة فى أشد مكان يستتر فيه الإنسان بفعله فى قعر
بيته . وتشتد أهمية تجنب هذه الصفة للمحتسب لأنه كثيرا ما
يدفع فى البحث عن المنكر للسعى فى إزالته ، فيشغله ذلك
الحماس عن الوقوف أمام الخط الأحمر الذى وضعه الشرع
الشريف لحماية خصوصيات الناس .

فالمنكر حرام ، والتجسس بحثاً عنه حرام أيضاً ، ولا ينبغى
الوقوف فى محرم مقطوع به عند صاحبه وهو التجسس للبحث
عن محرم مظنون قد يكون موجوداً وقد لا يكون ، وفى هدى

(١) روله الترمذى [٢٠٣٢] وقال الألبانى : حسن صحيح .

الراشد العظيم عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قصص كثيرة
تبرز هذا المعنى نسوق منها :

قال رجل لعمر رضى الله تعالى عنه : « إن فلاناً لا يصحو - لا
يفيق من الخمر - فقال انظر إلى الساعة التى يضع فيها شرابه فأنتى
فأناه ، فقال قد وضع شرابه فانطلقا حتى استأذن عليه فعزل شرابه
ثم دخلا فقال عمر : والله إنى لأجد ريح الشراب ، فقال يا ابن
الخطاب وأنت بهذا ! ألم ينهك الله عن التجسس فعرفها عمر
فخرج وتركه » (١) .

وكان رضى الله تعالى عنه وقافاً عند كتاب الله ، فرغم أنه
الحاكم العام للدولة الإسلامية بما يملكه من سلطات ، ورغم الظن
القوى الناشئ عن إخبار الرجل له ، وعن رائحة الشراب التى
شمها .. إلا أن ضبط الجريمة كان يحتاج لشيء من التجسس
الممنوع ، وما كان عمر بالذى يتعدى حدود الله بعد إذ نبهه
الرجل إليها .

وفيه أيضاً « إن عمر تسلق داراً ليجد رجلاً وامرأة وشراباً فقال يا
عدو الله أظننت أن الله تعالى يسترك وأنت على معصيته فقال : يا

(١) سند سعيد بن منصور .

أمير المؤمنين إن كنت عصيت الله واحدة فقد عصيت ثلاثاً ، فقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ وقد تجسسيت وقال : ﴿ وَأَتُوا بُيُوتَ مَنْ أَبْوَابَهَا ﴾ [البقرة: ١٨٩] وقد تسورت الحائط ، وقال : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [النور: ٢٧] ، وأنت ما سلمت ، فقال عمر : فهل عندكم منه خير إن عفوت عنك قال : نعم فعفا عنه وخرج وتركه « (١) .

وما كان لعمر أن يعفو عن حد من حدود الله ، ولكن خلافاً شديداً شاب إجراءات ضبط الجريمة وهو التجسس ، فكان لزاماً ألا يعاقب الجاني لهذا الخلل فإن وسيلة ضبط الجريمة ينبغي أن تكون مشروعة حتى يقع صاحبها تحت طائلة العقوبة .

وعنه أيضاً قال عبد الرحمن بن عوف حرست ليلة مع عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه بالمدينة إذ تبين لنا سراج فى بيت بابه مجاف على قوم لهم أصوات مرتفعة ولغط فقال عمر : « هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شرب - يعنى يشربون - فما ترى ، قلت أرى أننا قد أتينا ما نهى الله عنه ، قال تعالى : ﴿ وَلَا

(١) الخرائطى .

تَجَسَّسُوا ﴿١﴾ وقد تجسسنا فانصرف عمر وتركه (١) ، وفي هذا المعنى أيضاً ما حدّث به أبو قلابة .

إن عمر حدّث أن أبا محجن الثقفي يشرب الخمر مع أصحاب له في بيته فانطلق عمر حتى دخل عليه ، فإذا ليس عنده إلا رجل فقال أبو محجن : « إن هذا لا يحل لك . قد نهاك الله عن التجسس فخرج عمر وتركه » (٢) .

وقد أوجز ابن مسعود رضی الله تعالى عنه القاعدة التي تحكم هذا الأمر فقال لرجل جاءه يخبره إن فلاناً تقطر لحيته خمراً فقال : « إنا قد نهينا عن التجسس لكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به » (٣) . وقد أفاض العلماء في التأكيد على ضرورة تجنب التجسس للمحتسب بتفاصيل دقيقة ، فيقول حجة الإسلام الغزالي : « شرط الحسبة أن يكون المنكر ظاهراً للمحتسب بغير تجسس .. فكل من ستر معصيته في داره ، وأغلق بابه لا يجوز إن يتجسس عليه وقد نُهي عن ذلك » (٤) .

(١) عبد الرازق والخرائطي .

(٢) عبد الرازق والخرائطي .

(٣) رواه أبو داود [٤٨٩٠] وقال الألباني : صحيح الإسناد .

(٤) الإحياء : [٢ : ٣٢٠] .

ويقول أيضاً موضحاً وبشيء من التفصيل : « فإذا رأى الفاسق
وتحت ذيله شيء لم يجوز أن يكشف عنه ما لم يظهر بعلامة خاصة » .
ويضيف : « وقد أمرنا أن نستتر ما ستر الله وننكر على من أبدى
لنا صفحته » . وفيه أيضاً قوله : « ولا يجوز للمحتسب أن يقول
للشخص أرني لأعلم ما فيه فإن هذا تجسس » (١) .
وعند القرطبي : « خذوا ما ظهر ولا تتبعوا عورات المسلمين
أى: لا يبحث أحدكم عن عيب أخيه حتى يطلع عليه بعد أن
ستره الله » (٢) .

وفي هذا المعنى أيضاً يقول أقضى القضاة العلامة الماوردي : « وأما
ما لم يظهر من المحظورات، فليس للمحتسب أن يتجسس عنها ،
ولا أن يهتك الأستار حذراً من الاستتار بها ، قال النبي صلى الله
عليه وسلم : « من أتى من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بستر الله
فإنه من يبد لنا صفحته نقم حد الله تعالى عليه » .

ويضيف إلى ذلك معنى عظيماً فيقول : « فمن سمع أصوات

(١) المصدر السابق .

(٢) تفسير القرطبي [٣٣٣] .

ملاه منكرة .. من دار تظاهر أهلها بأصواتهم أنكرها خارج الدار ولم يهجم عليهم بالدخول ؛ لأن المنكر ظاهر وليس عليه أن يكشف عما سواه من الباطن » (١) .

انظروا إلى هذه الدقة الشديدة التي تجعله لا يقتحم عليهم بابهم رغم الريية والصوت المنكر المرتفع ، فأمر أن ينكر عليهم من خارج الدار حتى لا يتجسس عليهم في غير ما ظهر منهم .

ويقول القاضى أبو يعلى : « أما ما لم يظهر من المحظورات فليس للمحتسب أن يتجسس عنها ، ولا أن يهتك الأسرار حذرا من الاستسار بها » . ويضيف « وقد اختلف عن أحمد فيما ستر من المنكر مع العلم به هل ينكر فروى ابن منصور وعبد الله فى المنكر يكون مغطى مثل طنبور وأشباهه فقال : إذا كان مغطى فلا يكسره » (٢) .

فانظر إلى هذه الرواية عن أحمد إذ جعل الاستسار مانعاً من الإنكار حتى ولو علم وجود ذلك المنكر تنبيهاً على عدم محاولة اقتحام خصوصيات الناس التى يسترونها ولا يعلنون بها .

(١) الأحكام السلطانية .

(٢) الأحكام السلطانية .

فالإنكار إنما يكون على من استعلن بمنكره وجاهر به متبجحاً وضارباً عرض الحائط بقيم المجتمع الإسلامي وأوامر الشارع الحكيم ناشراً الفساد والمنكر بين الناس ، أما من استتر بستر الله واستخفى بمنكره فإن ضره يكون قاصراً عليه ، لذا فالأمر فيه أخف .

ثم إن للإنسان وليته وأهله حرمة ينبغى مراعاتها ، وينبغي الامتناع عن الاعتداء عليهم حتى ولو بالنظر اختلاصاً .

ولقد هم الرسول صلى الله عليه وسلم أن يطعن الرجل بمخيط في عينيه لما رآه ينظر إلى بيته دون استئذانه كما روى ذلك الإمام مسلم ، وأجاز أيضاً للإنسان أن يقذف المتلصص بحصاة ولو أدى ذلك أن تفقع عينيه ، وبين أن لا يضمنها سواء كان هذا المتلصص محتسباً على منكر أم كان غير ذلك .

وبعد .

فإنه لما يشعر بأهمية تجنب التجسس وقصر الإنكار على المنكر الظاهر فقط الذى تبجح صاحبه فاستعلن به ، إن العلماء عرفوا الاحتساب « الأمر بمعروف ظاهر والنهي عن منكر ظاهر » . (١)

فضمنوا التعريف هذا المعنى لإبرازه وبيان أهميته ، فليتبه كل من

(١) الأحكام السلطانية لكل من أنا وردى وأبى يعلى .

يتصدى للاحتساب لذلك الخط الأحمر فلا يتشوف إلى المنكرات ،
ولا يتلصص على البيوت ، ولا يعترض رجلاً يسير مع امرأة دونما
رية أو يسأل من تلك التي معك فكل هذا وأمثاله تجسس منهى عنه .
ويسوق أماننا الغزالي في إحيائه نماذج للتجسس المذموم وعلى
منوالها فقس إذ يقول : فلا ينبغي أن يسترق السمع على دار غيره
ليسمع صوت الأوتار ، ولا أن يستنشق ليدرك رائحة الخمر ، ولا
أن يمس ما في ثوبه ليعرف شكل المزمار ، ولا أن يستخبر من
جيرانه ليخبره بما يجرى في داره « (١)

فليتق الله كل من يتصدى لتنفيذ أمر الله بالحسبة أن ينتهك
الحرمات بالتجسس وأن يوقع نفسه في حرام قد يكون أشد من
حرمة المنكر المنهى منه .



(١) الإحياء جـ ٢ .